حجرة حجرة

رنوة يحيى

بتذكر في ٢٠١٤ قابلت صديقة وزميلة صحافية مصرية بقالها فترة بتشتغل في بيروت. كنا عم نحكي عن الوضع العام. كنا عم نحكي ونحنا نفسنا بنتشارك بشكل شخصي ومهني الحلم بالحرية والعدالة في بلادنا. كنت عم قول لها إن عندي إحساس قوي جدًا إن نحنا على الأقل بلشنا نتجرأ نقول أيه في أمل. كانت قناعتي من سنة ١٩٩٩ إن ما في أي أمل في أي عملية سياسية حقيقية في لبنان. وقتها كان تحليلي إن النظام السياسي مكبّل الموضوع منيح وإني مش شايفة أي طريقة غير عنيفة لكسر اتفاق الطائف. هو اتصمم ليضمن إنه ما يتغير.

يومها في ٢٠١٤، قلت لصديقتي الصحفية إن رجع عندي أمل بالتغيير. استغربت. قلت لها أنا وين ما عم أمشي ببيروت أو برا بيروت، صار في ذاكرة سمعية جديدة؛ بنسمع اللهجة اللبنانية والسورية بنفس الوتيرة تقريبًا. وهيدا شي مذهل. لية؟ لأن بالتمانينات لما كنت مراهقة، كان طبيعي إن صديقتي الفلسطينية تحاول ما تبيّن لهجتها وهي عم تحكي في أي إطار اجتماعي نحن فيه بلبنان كله.

وقتها في ٢٠١٤ طلعت على الجنوب ورحت طرابلس والبقاع. واكتشفت قديش كتير كتير سوريين مستأجرين بيوت بعد ما تهجروا. سألت بضيعتي بالجنوب. اكتشفت إن فيه سوريين -مع وضد النظام- كمان موجودين ومستأجرين.

أنا بفكر بمنطق الأجيال مش بالمنطق الحاضر. بفكر إن اللي عمرها وعمره ١٤ هلق كيف عم يكبر وكيف رح يتعامل مع لبنان بعد عشرين سنة.

النظام اللبناني. هني من الأول مركبين المعادلة إن أي خطر على مناصبهم مش رح يكون إلا بحرب. هي المعادلة الوحيدة اللي بيعرفوها لأنهم مش سياسيين، هني ميليشيات. وبالتالي للأسف ما في شي بيقدر يغير هل المعادلة اللي مش زاعجة أي من المستعمرين القدامى أو الجدد، إلا المقاومة المسلحة. أنا بحكي بإسمي، أنا رافضة العنف بالشكل اللي تأذينا منه. مش لاغيته لكن برفض إني مارسه مثل ما هني مارسوه. ما حدا يقول إن المسؤولية علينا إننا مش عم نطرح بديل. لو هني سياسيين فعلًا كان حيكون في مساحة لتطوير بديل سياسي في السنين الماضية.

أنا مؤمنة إن اللي صار في ٢٠١١ بتونس ومصر وسوريا والعراق وليبيا ولبنان هو أول بوادر لحراك بيحاول يكتشف هوية جمعية بتعمل شرخ للي فرضه الاستعمار القديم والجديد وحلفائهم المحليين في نظم مابعد الاستقلال.

لكن حاسة حالي اني طول الوقت مضطرة أكرر إن نحنا بأولها. نعم محظوظين إننا عاصرنا حراكات مؤثرة لهل الدرجة. لكن هل حراك مش إلنا. هل حراك بداية من معركة بعدها طويلة جدًا لتوصل للحلم.

١٧ تشرين، طرح هوية جديدة لأول مرة بنحسها كلبنانيين في تاريخنا الحديث. لما طرابلس تنادي للنبطية هيدا شي جديد علينا كلنا. ومش قليل أبدًا أبدًا أبدًا! لما بعد مجزرة المرفأ بيروت صارت فعلًا جزء من انتماءنا كلنا بعد ما كنا عم ننادي عم نتذمر من مركزية بيروت اللي مش عارفة شو هويتها. هيدا شي جديد الميليشيات ما بيعرفوا يتعاملوا معه. لما السوريين والفلسطينيين وباقي العاملين الأجانب العايشين معنا كمان ضحايا متلنا من هالنظام وتآمره مع النظام الأسدي، لما عم نبني جسور بيناتنا، هيدا جديد علينا وما بيعرفوا يتعاملوا معه، ما بيعرفوا مفاتيح السيطرة عليه. تكسير القبيلة والعشيرة والميليشيا معناها إن كل شخص بكل شققة بلبنان ما بينتمي لمعادلتهم هو قوتنا. كيف رح نقدر نتنظم لنخلق بديل يقدر يواجهم؟ الطريق بعده طويل. كل اللي قادرة شوفه إننا على الأقل بدأناه. وما عندنا أي خيار إلا إننا نكمله. بفكر باللي عمرهم ١٢ سنة هلق. شافوا شي جديد بس الوجوه بعدها هي ذاتها. السردية المهيمنة للسلطة بعدها فارضة حالها. بعد عم تتشكل للأجيال الجاية السردية الحلم.

شو هي الفرصة اللي نحن فينا نشتغل عليها بعد آخر مجزرة، بعدنا عم نتعامل مع تأثيرها بكل الاشكال؟ أنا مؤمنة إن واجبنا إن أي نوع من التحرك اللي بهزّ هل السطلة الفاسدة مهم نبني عليه فرص من اللي بيطلع من الأرض. مثلًا، كلنا حكينا بصوت واحد إن ما بدنا مساعدات من برا تكون تحت سيطرة السلطة. كلنا، وإن صار فيه استجابة لهل الموضوع من الحكومات اللي عم توعد تساعد ممكن تخلق معادلة جديدة. كيف بنقدر نستثمرها؟ فينا مثلًا نضغط إن يتم إعادة اصلاح المؤسسات الحيوية مثل الكهرباء والمياه والغاز بشكل خارج عن سيطرة السلطة مثلًا؟ لو صار تقدّم فيه، مش بيكون انجاز؟

البناء حجرة حجرة وقبل البناء في تصميم أساسات. نحنا فرصتنا الآن في التفكير في الأساسيات والاتفاق على خطة جمعية طويلة المدى.

أنا محترمة جدًا كتير من الأصدقاء والزملاء اللي عم يشتغلوا ليل نهار عشان يغيروا سياسات ويطرحوا سردية جديدة. شغلهم أساسي. وأي انجاز بتغيير سياسة واحدة هي خطوة لقدام. ومقدرة جدًا الناس اللي عم تشتغل ليكون في إطار منظم لعمل سياسي حقيقي. الشي الوحيد اللي بطلبه إن يضلوا يتذكروا إن المجهود اللي كلنا عم نعمله على الأرجح ما رح نشوف نتيجته في حياتنا. أنا هيّ وأنا عم قرّب على نصف قرن من الحياة بالمنطقة العربية، بشو رح اترك لولادي. أي خطوة لقدام هي خطوة أنا وفرتها على أولادي اللي بتمنى إني أكون ربيتهم كفاية إنهم يكملوا المسيرة.

بلكي بلكي أولاد أولادنا يكون عندهم الفرصة يعاصروا تغيير حقيقي كبير للمعادلة القائمة. ولو ما فكرنا هيك، هل الحراك رح يموت. الشهداء والضحايا اللي راحوا وحيروحوا رح يكون دمهم راح هدر. ما عنا شي إلا نكمل. وإننا نضل نؤمن إن ما رح نتنازل أبدًا عن إيماننا بالحق والعدالة والحرية. الحرية ممارسة ونضال يومي تراكمه أكيد حيسمّع في المستقبل البعيد.

شو اللي أنا شايفته انجاز لحد هلق اكتسبناه بنضالنا الجمعي الطويل اللي أنا شايفة إنه بلّش بالسبعينات؟ إن جيل الثورة ٢٠١١ خلانا نشوف بعض وبالتالي نشوف حالنا بشكل مختلف. وإن من وقتها والمسبحة كرّت وصعب مهما صار محاولات وعم بيصير كتير إنها توقف. وإن واجبنا نضمن إن ما ننسى شو صار وشو عملنا وشو تعلمنا ويكون هو قدامنا ونحنا عم نفكر بتشكيل سياسات وخلق تنظيمات بتشبه الجيل الحالي من الشابات والشباب والأصغر اللي بيكبر بسرعة.